الفصل الثالث

من عبدالحميد الثاني إلى أتاتورك

إن حكاية السلطان عبدالحميد الثاني تثير فينا الإعجاب، كما تثير فينا خاتمته المأساوية الشجن.

ها هو الرجل يتولى الخلافة محل أخيه الذي اتهم بالجنون ولم يمكث في السلطنة غير شهور. سعى هذا السلطان العظيم عبدالحميد إلى إرساء حياة الحرية في شعبه، فافتتح المجلس النيابي العثماني الأول، ويسمى مجلس العموم، ويتألف من مجلسين، أحدهما متنخب ويسمى مجلس المبعوثان، والآخر مجلس الأعيان، ويتم تعيين أعضائه من قبل الدولة، ولكن النكبة وقعت حين وجهت إلى الباب العالي لائحة برلين في مارس ١٨٧٦م/ ١٢٩٣هـ، بتوقيع الدول العظمى الأوربية ومن بينها فرنسا والنمسا وإيطاليا وروسيا وذلك للتشديد على الدولة العثمانية، وإجبارها على مهادنة الثائرين عليها، وكان الهدف هو التدخل في شؤون الدولة ومحاربتها لتقسيم أملاكها بين الدول المهدِّدة.

وبالطبع رفضت الدولة العثمانية التهديد، وسرعان ما اندلعت ثورة البلغار بإيعاز من روسيا، ولكن الدولة العثمانية قد قضت عليها، وهاجت

أوربا على الدولة العثمانية مطالبة إياها بوقف هذه المذابح بدعوى إنقاذ النصارى من رعاياها من قبضة المسلمين. ولم تكتف روسيا بالتنديد بالدولة بل عمدت إلى إثارة أميري الصرب والجبل الأسود ليحاربا الدولة وليسمحا لها بالتدخل هي وأوربا وإعلان الحرب.

انطلق الأميران بجيوشها، لكن انهزما أمام جيوش الدولة في ١٢٩٣هـ/ أيلول ١٨٧٦م، وطلب الأميران الهدنة لكن رفضت الدولة العثمانية واستأنفت القتال حتى زحفت على بلغراد، هنا ضغطت الدول على العثمانيين فقبلوا الهدنة مدة شهرين. ثم أصدرت الدول لائحة لندن ١٢٩٤هـ/ آذار ١٨٧٧م، وفيها إنذار بتدخل هذه الدول لحماية رعاياها من النصارى بالقوة، وبالطبع رفضت الدولة العثمانية التصديق على اللائحة.

أعلنت روسيا الحرب على الدولة في نيسان ١٨٧٧م/ ١٢٩٦هـ، وسرعان ما عبر الجيش الروسي نهر الدانوب في شهر حزيران واحتل مضايق البلقان، وهزم جيش العثمانيين، وأعلن الجيش العثماني بقيادة عثمان باشا استسلامه، ثم سقطت مدينة قارص في يد الروس.

ثم أعلنت الهدنة بعد دخول الروس مدينة أدرنة في ٢٠ كانون الثاني ١٨٧٨م وتم ذلك في شهر شباط من العام نفسه.

ثم جرى حلّ مجلس النواب في ١٤ شباط ١٨٧٨م/ ١٢٩٥هـ، وفي آذار انتهز أحد طلاب العلم فرصة اشتغال الدولة العثمانية بمفاوضات السلام وقام مع بعض أنصاره باستدعاء الخليفة المعزول مراد الخامس وتخليصه بالقوة من داخل القصر الذي هو فيه بالعاصمة العثمانية، وأعلن الثائرون العصيان وقتلوا بعض حراس القصر مما حدا بأنصار السلطان عبدالحميد إلى التصدي لهم وقتلهم، ثم أُعيد السلطان مراد ليحيا مع أسرته في قصر يلدز.

لكن الثوار نشطوا وأحرقوا مقر الباب العالي انتقاماً لفشل ثورتهم. وكان ذلك في ٢٣ آذار، ثم وقعت معاهدة سان استيفانوس بين الطرفين الروسي والعثماني على أن يعترف العثمانيون باستقلال إمارتي الجبل الأسود والصرب، وأن تنسحب الدولة العثمانية من بلغاريا.

طمع ملوك أوربا في الدولة، فعقدوا مؤتمر برلين لكن انسحب منه مندوب إنكلترا، وسارعت إنكلترا بعقد معاهدة دفاع مع الدولة على أن تتنازل الدولة لها عن جزيرة قبرص، ثم احتلت إنكلترا مضيق جبل طارق وجزيرة مالطة.

وتوالت المعاهدات ومؤتمرات الصلح بين الدولة العثمانية ودول أوربا إلى أن نصل إلى معاهدة برلين في ١٣ تموز ١٨٧٨م/ ١٢٩٦هـ، وفيها تحررت

بلغاريا من النفوذ العثماني، وتعدلت الحدود بين الدولة واليونان ووضعت البوسنة والهرسك تحت النفوذ النمساوي والمجري، واستقل الجبل الأسود.

وكان لهذه المعاهدة المشؤومة الأثر الكبير في تمزيق الدولة وتفتيت وحدتها ومحاولة النيل منها، ويكفي أن روسيا صار لها النفوذ المطلق في شرقي البلقان، وتنازلت الدولة العثمانية لروسيا عن أراضي أردهان وقارص وباطوم في شرقي البحر الأسود، واحتلت بريطانيا جزيرة قبرص، وفتحت تلك المعاهدة الطريق لفرنسا لاحتلال تونس ولبريطانيا لاحتلال مصر سنة ١٨٨٢م/ ١٣٠٠هـ بعد عام من احتلال تونس.

والأنكى أن الحركة الصهيونية اتجهت بأطماعها إلى الخليفة عبدالحميد وتقربت منه عقب انعقاد المؤتمر الصهيوني في سويسرا بزعامة تيودور هرتزل وحاولت الحصول على وعد منه بالسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين لاتخاذها وطناً قومياً لهم، وذلك سنة ١٨٩٧م، فرفض الخليفة عبدالحميد ذلك، فثار اليهود وأثاروا على الدولة العثمانية الزوابع حين أمر السلطان عبدالحميد بمنع الهجرة اليهودية، ومنع إقامة مستعمرات لليهود في فلسطين وأصدر قانوناً بهذا الشأن.

شجع الصهاينة حركات التمرد والاستقلال ضد الدولة، وفي سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، عزل السلطان عبدالحميد عن الخلافة، وبعد الحرب

العالمية الأولى قسمت الأقطار العربية بين بريطانيا وفرنسا، ثم صدر وعد بلفور المشؤوم في تشرين الثاني ١٩١٧م، ووضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني سنة ١٩٢٠م/ ١٣٣٩هـ.

ومن لظى الحرب العالمية الأولى لُفظ مصطفى كمال أتاتورك كالحمم يلفظها البركان الثائر.

ولد ذلك الرجل العجيب سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م، نشأ في سالونيك، ودخل الجيش وهناك حاول أن يشارك في أحداث بلده فأنشأ صحيفة بين طلاب الكلية الحربية، ثم تخرج برتبه نقيب، ثم لم يلبث أن نفي إلى الشام، ثم حين اتضح للسلطان وحيد الدين ما يسعى إليه مصطفى كمال من تغيير الأوضاع سارع بإعلان عزله من منصبه، وكان ذلك في عام ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م، ولم يضيّع مصطفى الفرصة فأعلن استقالته نهائياً ليتفرغ لتدبير ما يلزم لقلب نظام الدولة.

ولم يكد يعقد مؤتمر أرضروم الوطني حتى رشح نفسه، وفاز برئاسة المؤتمر.

وفي عام ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م، اجتمعت الجمعية الوطنية الكبرى، وفي أعقاب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى مع حليفتها ألمانيا

عقدت هدنة رودس، وانتهز أعضاء جماعة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي الفرصة للعمل على القضاء على الدولة، وسرعان ما انضم إليهما مصطفى كمال ليعجل بسقوط الخلافة الإسلامية.

لقد دعمت الدول الأوربية ظهور مصطفى كمال على مسرح السياسة التركية ليقضي على الإسلام ويشتت أهله، وينشر الفتنة.

يقول كارل بروكلمان: إن هذه الدول أتاحت وهيأت الفرصة السانحة للرجل الذي قدر له أن ينشئ تركيا الحديثة.

ولنتابع مسيرة مصطفى كمال إلى النهاية.

لقد احتل الحلفاء إستانبول في ١٣٣٩هـ/ ١٦ آذار ١٩٢٠م، واعتقلوا بعض أعضاء الجمعية وأرسلوهم إلى مالطة واحتلوا مبنى مجلس النواب. وادعى الحلفاء أنهم احتلوا إستانبول للقضاء على التمرد في منطقة الأناضول..

وفي ١٣٣٩هـ/ نيسان ١٩٢٠م عقد مجلس النواب جلسته في أنقرة باسم المجلس الوطني الكبير وتم انتخاب مصطفى كمال رئيساً له، وفي نهاية الجلسة تشكلت حكومة ثورية، وتحول المجلس الوطني من حرب الكلمات إلى حرب الكفاح المسلح.

وسارع مصطفى كمال فاستصدر قانون الخيانة الوطنية، وقد قضى ذلك القانون بأن الخليفة خائن هو وحاشيته وكل من هو خارج عن عضوية المجلس الوطني.

وطالب مصطفى كمال بإصدار دستور للعهد الثوري الجديد لجعل الحركة الوطنية ذات صبغة شرعية، وسرعان ما أعلن الدستور في ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م، من أربع وعشرين مادة، ومن أهم هذه المواد أن الحكم للشعب، وأن مجلس الأمة له كل السلطات التشريعية والتنفيذية، وأن المجلس هو الذي يدير الدولة، ثم تحول ذلك الدستور المؤقت إلى دستور دائم في عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.

كان رد فعل إنشاء الحكومة الثورية عنيفاً في إستانبول، وأقيلت وزارة صالح باشا وأعيدت وزارة فريد باشا إلى الحكم، واتحدت كل العناصر المناوئة للثوار للقضاء عليهم.

وانتهز اليونانيون الفرصة وتوسعوا في احتلال منطقة أزمير، ولجأ مصطفى كمال إلى أسلوب عجيب وهو عقد معاهدة صداقة وتعاون مع أعداء الدولة الروس في السادس عشر من آذار ١٩٢١م/ ١٣٤٠هـ، واستغل مصطفى كمال فرصة عقد مؤتمر الصلح وإصداره المعاهدة الشهيرة التي

تضمنت سلخ ولاية أدرنة عن الدولة وجعل منطقة أزمير تحت إدارة خاصة وقيام حكومة أرمينية مستقلة واعتبار المضايق منطقة دولية، وإلغاء التجنيد الإجباري.

استغل مصطفى كمال الفرصة للتنديد بالخليفة والحكومة، وقد أدرك أن المعاهدة تهدف قبل كل شيء إلى القضاء على حركته.

ذهب مصطفى كمال إلى الجبهة الغربية ليرسم خطة الدفاع، وأعلن في الولايات الشرقية التعبئة العامة للجهاد والقضاء على السلطان والدولة. وكذلك على الأرمن، وشكل العصابات لتقوم بالحرب داخل الدولة ولتثير الفتن والقلاقل.

ولقد سعت الدول الأوربية إلى الرفع من مكانة مصطفى كمال، فوجهت إليه الدعوة إلى مؤتمر يعقد في لندن.

وللأسف فقد كانت دعوة مصطفى كمال إلى المؤتمر اعترافاً شرعياً بالحكومة الثورية مما زاد من الهوة بين الثوار وحكومة الخلافة.

بعد انتهاء المؤتمر زحف اليونانيون على الجبهة الغربية، لكن نشط أعوان مصطفى كمال إلى الالتقاء بجيش اليونان الذي تراجع ضمن خطة مرسومة

لرفع شأن مصطفى كمال أتاتورك وسجلوا انتصارهم عليه في ١٣٤٠هـ/ آذار ١٩٢١م، مما اضطر اليونانيين إلى التراجع.

وفي أعقاب ذلك وجهت الدعوة لمصطفى كمال إلى الذهاب إلى لندن لبحث مسألة استقلال الدولة وجلاء اليونانيين عنها؛ فأجاب بأن الجلاء التام والاستقلال هما هدف حركته، كما رفض عرضاً من إيطاليا بعقد معاهدة صداقة بينهما.

وفي تموز ١٩٢١م/ ١٣٤٠هـ عاد اليونانيون لمهاجمة الدولة العثمانية، لكن تم انتصار القوى الثورية على الهجوم في (سقارية) في أيلول ١٩٢١م، ضمن تفاهمٍ وخطةٍ مقررةٍ.

وسرعان ما عقدت فرنسا مع مصطفى كمال اتفاق أنقرة في أواخر العام، وكان ذلك اعترافاً رسمياً من فرنسا بحكومة الثورة، وإنهاء حالة الحرب بين الطرفين.

ثم سارعت روسيا إلى عقد معاهدة (قارص) مع حكومة أنقرة وأصبحت حكومة الخلافة في طي النسيان.

ثم انعقد مؤتمر لندن في آذار ١٩٢٢م/ ١٣٤١هـ على أساس عقد هدنة مدتها ثلاثة أشهر تتجدد تلقائياً إلى أن يتم الصلح.

تم تأهب مصطفى كمال إلى توجيه الضربة الأخيرة للخلافة بإظهار الانتصار على اليونانيين، فانطلق في صباح السادس والعشرين من آب ١٩٢٢م/ ١٣٤١هـ واستطاع تطويق الجيش اليوناني ثم فسح لأفراده بالانسحاب وظهر على الساحة المحلية بتحقيق النصر.

ثم عين مصطفى كمال عصمت إينونو وزيراً لخارجيته وأوفده إلى لوزان لحضور مؤتمر الحلفاء للتفاوض، واستمر المؤتمر ثمانية أشهر وأسفر عن عودة ولاية أدرنة إلى الدولة العثمانية، والجلاء عن إستانبول وإلغاء الامتيازات الأجنبية.

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول ١٩٢٣م/ ١٣٤٢هـ أعلن إلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا وإعلان الجمهورية التركية وانتخاب مصطفى كمال أول رئيس للجمهورية من قبل الجمعية الوطنية.

ثم نشط مصطفى كمال بعد أن تسمى بأتاتورك إلى طرد آخر خليفة للمسلمين من تركيا في الثالث من آذار ١٩٢٤م/ ١٣٤٣هـ.

وكانت تلك الخطوة آخر مسمار دقه أتاتورك في نعش الدولة العثمانية، وياويل تركيا من ذلك الرجل العجيب الذي ألغى الحروف العربية واستبدلها بالحروف اللاتينية في اللغة التركية، وأغلق المساجد وأزال الأوقاف وحول

مسجد أيا صوفيا الشهير إلى متحف، ومسجد محمد الفاتح إلى مستودع، وفرض الزي الأوربي على الأتراك بالقوة، وحذف اللغة العربية -لغة القرآن الكريم- من المناهج التعليمية، وانقلبت الدولة العثمانية التي نافحت عن الإسلام طيلة سبعة قرون إلى دولة علمانية.

لقد كان لآل عثمان اليد الطولى في انتشار الإسلام في أوربا وذلك بعبورهم إليها وضم بعض أجزائها إلى سلطنة آل عثمان.

فقد عبروا إلى أوربا واتخذوا أدرنة حاضرة لهم، وامتدت أملاكهم من بحر إيجه إلى نهر الدانوب شاملة بلغاريا ومقدونيا وتراقيا. ثم انسابوا في عهد محمد الثاني الفاتح إلى القسطنطينية وألبانيا والبوسنة والصرب، ثم أضاف سليمان القانوني إلى الممتلكات العثمانية المجر، ثم سارع خلفاؤه إلى ضم جزيرة كريت.

ولا ننسى أن محمد الفاتح قد حمى النصارى وحرّم اضطهاد أهل الذمة وخيّرهم بين الإسلام أو دفع الجزية عن يد وهم صاغرون، أفبعد ذلك نتحدث عن العثمانيين واستغلالهم الدين الإسلامي؟!

لكن قرب النهاية مال بعض الخلفاء إلى الدعة والكسل، وشُغلوا بالتخلص من أشقائهم كيلا ينافسوهم في الحكم، وهنا كانت الطامة الكبرى.

ولماذا لا نقول إن الدول كلها والعالم كله نقصد العالم الغربي النصراني واليهودي قد تربص بهذه الدولة ليقضي عليها، وبالتالي ليقضي على الإسلام وامتداده وليجتثه اجتثاثاً عن عمد -إن استطاعوا-؟

ولقد تحقق هذا الهدف العجيب على يد مصطفى كمال الذي تلقب بأتاتورك أي أبو الأتراك الذي سارع بإلغاء الخلافة الإسلامية ونَشْر قانون مدني على أساس أوروبي، وإلغاء الكتابة بالحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية، واتخاذ التاريخ النصراني أساساً لتدوين التاريخ في تركيا.

وتحولت الدولة إلى الاتجاه العلماني.

لقد ظلّت الخلافة العثمانية تؤدي دورها الرائد في حماية الإسلام والمسلمين على مدى خمسة قرون كاملة.

لكن حين انصرف بعض الخلفاء إلى الترف وتدخل الوزراء والقادة في شؤون الدولة، وتربص أعداء الدولة بها من النصارى واليهود، أدى ذلك كله إلى انهيار الدولة، وعلى يد ولاة الدولة العثمانية في مصر وعكا وفلسطين محمد علي وضاهر العمر وبشير الشهابي الذين رفعوا راية العصيان والاستقلال عن الدولة.

ولا ننسى أن السلطان عبدالحميد كان ضحية أخطاء من سبقه من خلفاء ضعاف، وأنه حين وقف الموقف المشرف للإسلام حين منع زحف اليهود إلى فلسطين كانت نهايته.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.